مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

رأى فى مقدمة كتاب

دراسات المستشرقين حول الشعر الجاهلى

• الاستاذ محمد عثمان •

من حق كل باحث فى عالمنا العربى والاسلامى ان يصدر كتابا يثرى به المكتبة العربية الاسلامية ، ويفيد منه الأجيال الحاضرة من الأمة والأجيال اللاحقة . هذه حقيقة لايختلف فيها اثنان ، فدور النشر التى يملكها الأفراد تقبل كل كتاب يكتبه باحث دون ضوابط أو شروط ، لأنها تدرك أن مسئولية المحتوى هى - فى واقع الأمر - تقع على عاتق صاحب الكتاب المراد نشره ، وقراؤنا فى هذا اليوم يقبلون على القراءة دون ضوابط أو شروط أيضاً ، لأنهم طلاب معرفة ، وطالب المعرفة لايضع شروطاً مسبقة لما يقرأ ؛ والا فاته الكثير مما ينبغى معرفته ، ولكن اذا انتفت الضوابط والشروط فى النشر والقراءة فان ثمة ضابطا حتميا هو ضمير الكاتب نفسه ، ومدى صدقه فى اثراء المكتبة العربية ، ونيته الصادقة المخلصة فى افادة الاجيال من هذا الذى يكتبه .

ولقد كان السلف الصالح من علمائنا وكتابنا الماضين يبتغون دائما - بجانب التكسب لدى بعضهم - وجه الله تعالى فيما يكتبونه ، لانهم كانوا يرون فى التأليف والتصنيف ضربا من ضروب العبادة يحققون به اجرا عند الله فضلا عما يحققونه من نفع دنيوى . والتكسب من التأليف امر لاغبار عليه اذا اتصل بغايات نبيلة وأهداف سامية قوامها خدمة الامة ، وانارة طريقها برفع الجهل وتيسير المعرفة لها ، من ذوى الفكر وأرباب الابداع .

وفى عالمنا العربى اليوم كتاب وباحثون وادباء لهم تأثير واضح على القراء ، ولاقلامهم سطوة فى دنيا الكتابة والبحث ، الامر الذى يجعل دور النشر ـ حيث كانت الى التكسب تذهب ـ تتهافت الى نشر مايكتبون ، ويتلقف القراء كتاباتهم لما لهم من التـأثير الذى ذكرت ، ومن هنا تصبح قضية الضمير وصدقه أمرا بالغ الخطورة عند هؤلاء أكثر من غيرهم من عامة الكتاب والباحثين والادباء .

والذى دفعنى الى كتابة ماسبق أن عمد باحث من ذوى السطوة فى القلم الى أسلوب مضلل فى التأليف ليثير قضية مضى عليها أكثر من خمسين عاما ، قضية فرغ الباحثون منها حيث اثيرت ، وانتهوا منها الى أسس ثابتة وقواعد متينة فى ميدان البحث الأدبى ، وهو يثيرها اليوم لا لشىء الا ليروج لعمل قام به فات زمنه ، وانكشفت عمايته لدارس الأدب العربى منذ العقدين الثالث والرابع من هذا القرن .

ذلك الباحث هو الدكتور عبدالرحمن بدوى الذى نعلم مالقلمه من سطوة ، ومالكتبه من تأثير ، وعمله الذى قدمه لقراء العربية هو ترجمته لدراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى فمنذ ان صدر هذا العمل بمقدمته التى صدرها به ، ومنذ أن وقفت عليه عقدت العزم على مناقشة هذا الباحث الكبير فيما جاء فى مقدمته وكنت كلما هممت بذلك صرفتنى عنه أمور عدة حتى حثنى على انجازه واتمامه زميلى وأخى الأستاذ عبدالحميد الهرامة ، أحد مشرفى هذه المجلة ، فكان له الفضل فى ابراز هـذه الامانـة فى كشف الأسلوب الذى اتبعه هذا الباحث فى مقدمته .

وأنا هنا لاأريد ان أبحث فى قضية الشك فى الشعر قبل الاسلام ولا آراء المستشرقين فيها فالأمر كما قلت قد فرغ منه منذ زمن بعيد ، وفيما كتبه كبار الباحثين فى مختلف اقطارنا العربية مافيه الكفاية ، ولكنى أريد ان اقصر بحثى ونقاشى على ماجاء فى مقدمة الدكتور بدوى لما اشتملت عليه من تدليس متعمد ، وتهجم صريح على سائر الباحثين العرب منذ ايام طه حسين والى يومنا هذا .

ففى هذه المقدمة امران خطيران :أحدهما الربط بين مـاقام بـه محمد بن سـلام الجمحى المتوفى سنة 232 هـ . فى كتابه « طبقات الشعراء » وماقام به الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وبديله « فى الادب الجاهلى » والأمر الآخر هو وصف كل الاعمال التى قامت حول شعر ماقبل الاسلام من أسـاتذة الأدب العـربى وتلاميذهم منذ عام 1927م بأنها تكشف عن جهل هؤلاء الأساتذة وتلاميذهم بما نشر من قبل المستشرقين من أبحاث فى هذا الخصوص .

فماذا قال الدكتور بدوى فى الأمر الاول ؟ ومامبلغ خطورته ؟ قال الدكتور: « كلما اتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التى اثيرت حول كتاب « فى الشعـر الجاهـلى » سنة 1926 ، وبديله « فى الادب الجاهـلى » سنة 1927 للدكتـور طه حسين فـان عجبى لاينقضى » ثم علل ذلك بأن ماقاله الدكتور طه حسين عن انتحال الشعر الجاهلى وفساد رواته ورواياته هو أمر سبق أن قاله وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة القدماء منذ القرن الثانى للهجـرة .. ويكفى المرء ان يفتـح الصفحات الاولى من كتـاب « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلام الجمحى ليقرأ فيه مايلى ... ثم نقل كل الاشارات التى وردت

فى كتاب « طبقات الشعراء » وقد بلغ بها اثنى عشر نقلا اقتطعها ليدل بها على ان النحل قد داخل الشعر قبل الاسلام فى روايته ، ولينتهى الى نتائج ست أوردها خلاصة لما جاء فى هذه الاشارات ثم قال : « تلك هى النتائج التى انتهى اليها ابن سلام الجمحي ، والأسباب التى ساقها لبيان منشأ الانتحال والتزييف والزيادة فى الشعر الجاهلى ، وهى عينها النتائج التى أوردها الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » و « فى الأدب الجاهلى » فعلام اذن كل هذه الضجة الزائفة التى أثيرت حول هذا الكتاب حتى نعترا صاحبه بما شاءوا من النعوت فاتهموه بالمروق والتهجم على التراث العربى العريق ، والرغبة فى تحطيم أمجاد العرب والانسياق وراء مؤامرات المستشرقين ؟... فهل كان ابن سلام الجمحي مستشرقا هو الآخر ، ومتآمرا على التراث العربى القومى ؟! اننا لم نجد لأى واحد من الكتاب القدماء ابتداء من القرن الثالث الهجرى طعنا فى الرجل بأى معنى من المعانى » (١) .

والسؤال الآن هل ماصنعه طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وبديله « فى الادب الجاهلى » هو صنيع محمد بن سلام فى « طبقات الشعراء » ؟ كلا والف كلا . فابن سلام لم يقل فى كتابه « للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها (2) ولو قال ابن سلام مثل هذا القول فى ذلك الزمن لما اكتفت الأمة بحرق كتابه وتصدى علمائها له بالنقد بل لرأيته مصلوبا تأكل الطير من رأسه .

وابن سلام لم يقل « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منتحلة بعد ظهور الاسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم واهواءهم اكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وان مابقى من الادب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لايمثل شيئا ، ولايدل على شىء ، ولاينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الادبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى (3) .

لم يقل ابن سلام مثل هذا الكلام ، ولاقال به أحد من شيوخه الذين أخذ منهم العلم ولاأحد من معاصريه ، وانما كل الذى فعله الرجل انه نقل فى أمانة وصدق رأيه ورأى غيره فى ظاهرة النحل التى صحبت شعر ماقبل الاسلام قبل التدوين وبعده وكانت خلاصة دراسته لهذه الظاهرة ـ دون تعميم ودون تزيد كما فعل الدكتور بدوى فى مقدمته ومن قبله الدكتور طه حسين فى كتابه ـ محور الحديث » تتمثل فى الآتى :

اولا :

ان هنالك نحلا فى الشعر قبل الاسلام تم عن طريق القبائل حيث وضعت هذه القبائل شعرا فى الاسلام واضافته الى شعرائها فى الجاهلية ، وهذا واضح من عبارته التى اقتطعها الدكتور بدوى والتى تقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامه ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم واشعارهم وارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على السن شعرائهم » (4) .

ثانيا :

ان ثمة نحلا صدر عن طريق الرواة وهم فى نظر ابن سلام يمثلون طائفتين . طائفة كانت تحسن الشعر وتجيده فهى تنظمه وتضيفه الى الجاهليين ، وطائفة اخرى كان يمثلها رواة السير والاخبار والقصص وهؤلاء لم يكونوا يضعون الشعر وانما يؤتى لهم بالشعر المنحول فيحملونه ويروونه من خلال اخبارهم وقصصهم . (5) .

ومثل ابن سلام للطائفة الاولى بحماد الراوية فقال عنه ـ ما نقله بدوى فى مقدمته « كان اول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره » وهذا القول فى حماد ومثله الخبر الذى يقول بأنه وضع قصيدة فى مدح ابى موسى الاشعرى ونحلها الحطيئة ومثلها ايضا قوله يونس « العجب لمن يأخذ عن حماد وكان يكذب ويلحن ويكسر » (6) . هذه الاقوال وغيرها فى حق حماد دافعها التعصب المدرسى الذى كان قائما بين علماء للبصرة والكوفة ، وقد اثبت ذلك الدكتور ناصرالدين الاسد فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية (7) ، وكان ينبغى على الدكتور عبدالرحمن بدوى ان يخضع هذه الاقوال للمناقشة والدرس لا ان يقتطفها من كتاب ابن سلام ثم يقيم عليها النتائج التى تقود الى الخطأ والتزيد .

واما الطائفة الثانية فقد مثل لها ابن سلام بمحمد بن اسحاق فى قوله الذى اورده بدوى ايضا « وكان ممن افسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحاق بن يسار وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، انما اوتى به فاحمله ، ولم يكن ذلك له عذراً فكتب فى السير اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، واشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم اشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، وانما هو كلام معقود بقواف ، افلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن رواه منذ آلاف السنين (8) .

وابن سلام حين قال : « وفى الشعر مصنوع ومفتعل وموضوع كثير لاخير فيه » ـ وهى العبارة التى احتفى بها الدكتور بدوى وصدر بها مقتطفاته من كتاب ابن سلام ـ انما قصد بذلك ما يرويه ابن اسحاق واضرابه من شعر فى السير ولم يقصد مطلقا الاشعار التى صححها الرواة الثقات . ومع ذلك فان من الباحثين المعاصرين من يفسر هذه الاشعار التى رواها ابن اسحاق وغيره بظاهرة « الادب الشعبى » الذى صنعه خيال عربى مجهول وصحب المجتمع العربى فى اورمته الاولى ، وهى ظاهرة توجد ،مثالها فى تراث كل المجتمعات الانسانية وهو ادب يعتبر وليد « الوجدان العام » ففى كل مجتمع توجد حكايات مختلفة يختلط فيها التاريخ بالاساطير . يقول الدكتور انس داؤد : « ولقد ثار ابن سلام على هذا الشعر ثورة عارمة لأنه عرض فى موطن الحق وفى ثنايا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولو روى فى ثنايا الاقاصيص والحكايات التى كان يتلهى بها القوم فى كل مكان لاختلف موقف العلماء ورأوا انه يخرج عن دائرة اختصاصهم ، اذ هو محض اختلاق طريف يضاف الى عناصر اخرى فى تلك الحكايات ليس من همها تصوير

محض اختلاق طريف يضاف الى عناصر اخرى فى تلك الحكايات ليس من همها تصوير الصدق او تحرى الحقيقة او الكشف عن اسرار التاريخ بقدر ما كان همها اجتلاب الترويح واجتراح الطرائف وابتكار الخيالات العجيبة » (9) .

فاذا كان قد فات ابن سلام فى ذلك الزمن ان يضع هذه الاشعار موضعها الصحيح من الادب الشعبى للامة العربية فى عصر ما قبل الاسلام فهل يفوت ذلك الدكتور بدوى ان يضعها موضعها الصحيح وهو يرى نظائرها فى الآداب الاوربية التى وقف عليها ـ بدلاً من ان يضعها هذا الموضع الذى سبقه اليه الدكتور طه حسين ليقيم عليه النتائج التى لا توصل الا الى الشك والتجريح والطعن فى الشعر قبل الاسلام .

وابن سلام لم يطعن فى شعر امرىء القيس ، ولم يشكك فى شخصيته مثلما فعل الدكتور طه حسين (10) ولم يشكك فى شعر علقمة الفحل او عمر بن قميئة او المهلهل او عمرو بن كلثوم او الحارث بن حلزة او طرفة بن العبد او المتلمس او الاعشى على النحو الذى نجده فى صفحات القسم الثالث من كتاب (فى الادب الجاهلى) (11) فعمل ابن سلام فى هؤلاء الشعراء واضح لا يقبل المماراة او التدليس فهو قد نظر الى هؤلاء الشعراء وفق معطياته النقدية ووفق ما صح لهم من قصائد لدى المصححين من الرواة ، فوضع امرؤ القيس فى مقدمة الطبقة الاولى من فحوله وقال فى اسباب تقدمته « سبق العرب الى اشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، والخيل بالعقبان ، والعصى ، وقيَّدَ الاوابد ، واجاد فى التشبيه » (12) .

ووضع علقمة الفحل فى الطبقة الرابعة وقال : « ان له ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر » (13) ، ووضع عمر بن قميئة فى مقدمة الطبقة الثامنة من فحوله (14) وذكر المهلهل حين قال « وكان اول من قصد القصائد وذكر الوقائع » المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل اخيه كليب وائل » وقال عنه : ايضا « وكان شعراء الجاهلية فى ربيعة اولهم المهلهل (15) ، ووضع عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة فى الطبقة السادسة مع عنترة بن شداد وسويد بن ابى كاهل ووصفهم بأصحاب الواحدة واشار الى طويلة ابن كلثوم « الاهبى بصحنك فاصبحينا » والى طويلة ابن حلزة « آذنتنا ببينها اسماء » وقال عنه « وله شعر سوى هذا » يعنى شعره فى الطويلة . (16) ولم يطعن ابن سلام فى شعر طرفة او عبيد بن الابرص على نحو ما جاء فى كتاب الدكتور طه حسين وانما وضعهما فى الطبقة الرابعة من فحوله وقال عنهما وعن علقمة وعدى بن زيد « موضعهم مع الاوائل وانما اخل بهم قلة شعرهم بايدى الرواة » وقال عن طرفة : فاما طرفة فاشعر الناس واحدة وهى قوله :ـ

لخولة اطلال ببرقة ثهمد ... وقفت بها ابكى وابكى الى الغد (17)

وقال ويليها اخرى مثلها وهى :

اصحوت اليوم ام شاقتك هر ... ومن الحب جنون مستعر .

واضاف « ثم من بعد له قصائد حسان جياد » (18) واشار ابن سلام الى ان شعرا منحولا قد اضيف الى طرفة والى عبيد ، وذلك فى قوله ، « ومما يدل على ذهاب

العلم وسقوطه قلة مابقى بايدى الرواة المصححين لشعر طرفة وعبيد والذى صح لهما قصائد بقدر عشر وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهـرة والتقدمة ، وان كان مايروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على افواه الرواة » (19) .

وظاهر هذا القول ان ابن سلام يثبت لكل من طرفة وعبيد قصائد بقدر عشر كما يدلل على ان شعرا غثا قد حمل عليهما ، وهو شعر لايصعب على العالم تمييزه لانه غثاء ظاهر النحل ، فماذا نال طرفة من الدكتور طه حسين قال : انه يشك فى شعر طرفة لان شعره اشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين » ولان شخصيته مختفية فى قصائده الاخرى غير المعلقة او غير أبيات من المعلقة (20) وماذا نال عبيد منه ؟.. تعرض اليه من خلال حديثه عن امرىء القيس وقال : انه التمس من سيرة عبيد ومايضاف اليه من شعره ما يعينه على اثبات شخصية امرىء القيس وشعره .. فكانت النتيجة محزنة ، وقال : إن الرواة لايحدثوننا عن عبيد بشىء يقبل التصديق ، فهم قـد اوصلوا عمره الى ثـلاثة قرون ، وجعلوه شخصية تتصل بالخوارق والكرامات وتصادق الجن والسماء ، ورفض كل روايات الرواة لشعر عبيد وتشبث بقول ابن سلام انه لا يعرف لعبيد الا قوله « اقفر من أهله ملحوب » ولا يدرى ما بعد ذلك مع اننا رأينا قبل قليل قول ابن سلام نفسه الذى يثبت فيه ان الرواة المصححين يروون لعبيد قصائد بقدر عشر .. وأشار طه حسين الى شعر عبيد الذى هجا فيه كنده ، وشك فى صحته ، ليقفز بعد ذلك كله الى حكم تعميمى ، تسلط عليه فى جل صفحات كتابه . وهو قوله : « اذن فكل شعر امرىء القيس المتصل بشعر عبيد هذا منحول ايضا كشعر عبيد » (21) فهل فعل ابن سلام هذا حتى نأتى لنقول ان صنيع طه حسين هو صنيع ابن سلام؟ .

ولم ينل الاعشى والمتلمس من ابن سلام ما نالاه من الدكتور طه حسين بل وضع ابن سلام الاعشى فى الطبقة الاولى مع امرىء القيس وزهير والنابغـة وقال عنـه : « وقال أصحاب الاعشى هو أكثرهم عروضا ، واذهبهم فى فنون الشعر ، واكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحا وهجاء ونظرا وصفة ، كل ذلك عنده » وقال « وشهدت خلفا وقيل له من أشعر الناس ؟ فقال: ما ينتهى الى واحد يجتمع عليه ، كما لايجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس . قلت : فايهم أعجب اليك يا ابا محرز قال : الاعشى . قال : اظنه قال : كان اجمعهم » : وقال ابن سلام « كان ابو الخطاب الاخفش مستهترا به يقدمه وكان ابو عمروبن العلاء يقول : مثله مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره ويقول : نظيره فى الاسلام جرير (22) هذا حظ الاعشى عند ابن سلام ومكانته عند علماء عصره .

فماذا نال من طه حسين ؟ إنه شك فى شعره الذى قاله فى المديح وقال :« انه مظهر من مظاهر العصبية فى الاسلام وقال : ان الكثرة المطلقة من شعـر الاعشى قد صنعت فى الاسلام فى الكوفة ، وكانت مظهر التحالف العصبى بين ربيعة واليمن على مضر (23) وقال عن شعره فى الغزل « ولكنى أجد فى غزل الاعشى لينا شديدا أعرفه فى شعر ربيعة واعلله بالتكلف والنحل » (24) واذن فماذا بقى للاعشى من شعر عند طه حسين ؟ وما

قيمة هذه الاقوال التى أوردها ابن سلام لعلماء عصره ؟ يبدو أنها فى نظره لا شىء . وأما المتلمس جرير بن عبدالمسيح خال طرفة بن العبد ، فقد وضعه ابن سلام فى الطبقة السابعة من فحوله مع سلامة بن جندل وحصين بن الحمام المرى ، والمسيب بن علس وقال فى مقدمة ذكرهم « اربعة محكمون ، فى اشعارهم قلة فذاك الذى أخرهم » (25) أما طه حسين فقد قال : انه يشك فى شعر المتلمس لما فيه من رقة واسفاف وابتذال ، واكبر الظن ان كل ما يضاف الى المتلمس من شعره او أكثره على أقل تقدير مصنوع ، الغرض منه تفسير طائفة من الامثال وطائفة من الاخبار (26) .

وابن سلام لم يقل فى شعر مضر ما قاله طه حسين فقد قال طه حسين « لسنا نشك فى انه قد كان لمضر شعر فى الجاهلية ، لسنا نشك فى أن هذا الشعر قديم العهد بعيد السابقة .. ولكننا لا نشك أيضا فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ولم يبق لنا منه الا شىء قليل جدا لا يكاد يمثل شيئا .

وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب ، وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل حتى اصبح من العسير جدا وان لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته (27) هذا قول طه حسين فى شعر مضر فماذا فعل ابن سلام ؟ وضع من شعراء مضر سبعة وعشرين شاعرا فى طبقاته من مجموع قدره اربعون شاعرا ، وقد جاءوا موزعين فى هذه الطبقات من الاولى الى العاشرة ، واشار الى قصائدهم الصحيحة عند الرواة وصحيح ان ابن سلام قد اشار الى ضياع الشعر المضرى وغير المضرى واورد قول أبى عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير (28) غير ان القلة هنا لا تعنى المقدار الضيئل الذى يرمى اليه الدكتور طه حسين ومن بعده الدكتور بدوى وانما القلة بالنسبة الى المقدار الذى ضاع فما وصل الينا من شعر العرب قبل الاسلام مقدار قليل ولكنه كثير اذا قسناه بما وصل الى الامم الاخرى من شعرها القديم وهذا ما عناه الدكتور أحمد الحوفى حين قال : « إنه أكثر مما نظمت أية أمة قديمة ، وانه يبعث الدهشة ، ويبعث الاعجاب بالرواة الحفاظ الذين وعت حوافظهم هذا الفيض الغزير » (29) .

وابن سلام لم يقل إن هذا الشعر قد كثر فيه الخلط والتكلف والنحل حتى اصبح من العسير جدا ان لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته وانما قال فى كلام واضح جلى « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم ان يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الاشكال » (30)

والذى يفهم من هذا القول ان العلماء فى أواخر القرن الثانى والقرن الثالث استطاعوا ان يصلوا الى الزائف المنحول من شعر ما قبل الاسلام واذا كانت قد واجهتهم صعوبة فى هذا الخصوص فانما تبدو فى شعر البادية ، حين يضع الشاعر البدوى شعرا يضيفه الى أبيه او الى غير أبيه ولكنه مع ذلك لا يكون كشفه متعذرا أو مستحيلا وانما على حد تعبير ابن سلام « يشكل بعض الاشكال » فمثلا لو أن كعب بن زهير وضع قصيدة واسندها الى أبيه زهير لقامت صعوبة فى تصحيحها لأن كعبا كان راوية أبيه وكان عالما بشعره ، فاثبات صحة النسبة فى هذه القصيدة تحتاج من العالم الدارس ان يقرأ كل شعر زهير ، وأن يقرأ شعر كعب كله ليصل الى الخصائص والمميزات التى تميز كلا

الشاعرين ، وعندها يصل الى ما نسبه كعب لأبيه أحقيقة هو أم مجرد اختلاق . هذا ما حدده ابن سلام وفق ادواته ووفق ما أخذه من شيوخه الذين تلمذ لهم فأين منه الدكتور طه حسين حتى نقول ان صنيعه « فى الشعر الجاهلى » أو « فى الأدب الجاهلى » هو صنيع ابن سلام فى « طبقات الشعراء » ؟!

ونحن أيضا لا ينقضى عجبنا حين نرى الدكتور عبدالرحمن بدوى يلجأ الى التعميم فى الحكم وهى السبيل التى سلكها الدكتور طه حسين من قبله بنصف قرن من الزمان وذلك حين يضع النتائج التى بناها على مقتطفاته التى أخذها من كتاب ابن سلام . قال فى احدى نتائجه « إن شعراء الجاهلية حُمِّلَ عليهم ـ أى نسب اليهم كذبا ـ الكثير من الشعر وأصبح تخليص الصحيح عن الزائف شديدا عسيرا حتى اضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل الضبى فاكثر » (13) وابن سلام لم يقل ان شعراء الجاهلية وانما قال « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شىء كثير وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فاكثر (32) فليس عدى بن زيد من شعراء الجاهلية كما يذهب الدكتور عبدالرحمن بدوى ، ولم يكن ابن سلام غافلا عن الصحيح من شعر عدى ولا جاهلا لما اضيف اليه من شعر ، فقد قال بعد ذلك قولا تعمد الدكتور بدوى اغفاله قال : « وله اربع قصائد غرر روائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن اولهن .

أرواح مودع ام بكور ... انت فاعلم لاى حال تصير

وقوله « اتعرف رسم الدار من أم معبد » وقوله :

ليس شىء من المنون بباق ... غير وجه المسبح الخلاق .

وقوله :ـ

لم أر مثل الفتيان فى غبن ... الايام ينسون ما عواقبها (33)

هذا ما قاله ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » عن شعراء ما قبل الاسلام وما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » وبديله « فى الأدب الجاهلى » حاولنا أن ننقله فى امانة وصدق دون تدليس او اخفاء .. فهل بعد هذا يأتى باحث ليزعم ان ما صنعه ابن سلام فى أوائل القرن الثالث الهجرى هو ماصنعه طه حسين فى الربع الأول من هذا القرن العشرين . ويزعم أنه يعجب لما أثير من ضجة حول ماكتبه وتزيَّدَ فيه بل تجاوز فيه حدود البحث العلمى، جريا وراء شهرة كما يرى أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى حيث قال: « وحملت الشهرة صاحبنا وجعلت منه أديبا كبيرا ومفكرا حرا واختفى وراءه كثيرون يجنون من حملة التشكيك، صرفا للأمة عن أهدافها القومية وشغلاً لها عن جلائل الأمور فيها، علانية أو من وراء ستار، وحملت الموجة صاحبنا فوق ماكان يتصور وبلغ غايته، ثم هدأت الضجة وعاد الكتاب إلى مكانه الحق، رأى لانسان فى قضية أدبية، يقرأه الناس فيوافقونه أو ينكرون مافيه بلا ضجيج (34) .

قال أستاذنا هذا الكلام فى ديسمبر 1967 م ولكن ها قد عاد باحث كبير بعد سنتين وعشر الى الضجيج من جديد فماذا نقول له سوى : أن اتق الله فى الأجيال الحاضرة والمستقبلة فى كل ما تكتب وان هذه الأمة التى واجهت ـ منذ حياتها الأولى قبل الاسلام والى عصرنا هذا الحديث ـ محناً واهوالا فى محاولات السيطرة والتسلط، هذه الأمة يكفيها من استلاب فكرى عاشته وتعيشه الى اليوم .

وليت الدكتور عبدالرحمن بدوى اكتفى بالتدليس فى الزعم أن صنيع ابن سلام هو صنيع طه

حسين بل عمد الى ماهو شر من ذلك، وذلك حين قال مشيرا الى أبحاث المستشرقين التى صدرت حول صحة الشعر الجاهلى « والشىء المؤسف حقا هو أن كل هذه الابحاث قد بدأت فى الستينات من القرن الماضى ونمت واتسعت بينما ظل المشتغلون بالأدب فى العالم العربى والاسلامى بمعزل تام عنها، وفى جهل فاحش بها، وربما كان فى هذا التفسير للدهشة الحمقاء التى قوبل بها كتاب الدكتور طه حسين، ولو كانوا على علم بما كتبه القدماء من علماء العربية مثل الجمحى.. ثم لو كانوا اطلعوا على ابحاث المحدثين من المستشرقين التى بدأت قبل ذلك باكثر من خمسة وستين عاما لما راوا فى كتاب « فى الأدب الجاهلى » شيئا غريبا مستنكرا.. ولكن ماحدث فى مصر والعالم العربى كان على النقيض تماما، فلم يقتصر الأمر على الردود الممعنة فى الجهل والادعاء التى نشرت فى سنة 1927 وما تلاها بل كان الادهى هو ماكتبه اساتذة الأدب العربى من كتب وماحضره تلاميذهم من رسائل جامعية لنيل الدكتوراه، وكلها تكشف عن جهل ـ هؤلاء وأولئك ـ التام بكل مانشر قبل ذلك بمائة عام أو يزيد من أبحاث ودراسات نضّرت وجه البحث فى الشعر الجاهلى، وتقدمت به خطوات هائلة هم عنها غافلون، ولا أريد أن اذكر أسماء لأنى لا استثنى منهم أحدا .. (35) .

هذا ماقاله الدكتور عبدالرحمن من تجن على زملائه الباحثين فى العالم العربى والاسلامى، حرصنا أن ننقله الى القارىء كما ورد حتى نوضح زعمه الباطل فيما ذهب اليه، من أن علماء الأمة وباحثيها قد جهلوا ماقاله ابن سلام وماكتبه هؤلاء المستشرقون .

فاما دعوى أن هؤلاء العلماء لم يقفوا على ما قاله ابن سلام وقوف دراسة فتلك دعوى باطلة تدحضها الدراسات العديدة التى قامت حول ابن سلام وكتابه « طبقات الشعراء » منذ زمن بعيد، ويكفى أن تفتح كتابا من كتب هؤلاء العلماء فى أدب ماقبل الاسلام أو فى ادب الاسلام حتى تجد ابن سلام ماثلا فى جل صفحاته، وآخر هذه الكتب التى صدرت حول ابن سلام هو كتاب زميلنا الدكتور عدنان قاسم « دراسات نقدية » فقد عقد فيه فصلاً عن ابن سلام، وصدر هذا الكتاب فى العام ذاته الذى أصدر فيه عبدالرحمن بدوى كتابه هذا..(36) .

أما قوله بأن هؤلاء الاساتذة وتلاميذهم قد جهلوا هذه الأبحاث التى كتبها هؤلاء المستشرقون فيدل على أحد امرين اما انه لم يقف على أعمالهم فى هذا الشأن أو انه قد وقف عليها ولكنه يتعمد تجهيل أصحابها لحاجة فى نفسه، فبحث مرجليوث الذى أصدره فى عدد يوليو سنة 1925 م من « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » والذى ترجمه الدكتور بدوى فى الصفحات 87 - 129 من كتابه قد درسة محمد الخضر حسين فى كتابه « نقض كتاب الشعر الجاهلى » الذى أصدره فى العام نفسه الذى أصدر فيه طه حسين كتابه وأثبت ان جل آراء طه حسين أخذها من مرجليوث بالنص (37) ووقف على بحث مرجليوث أيضا محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » (38) .

وفى عام 1955 تقدم الدكتور ناصر الدين الأسد لنيل درجة الدكتوراه ببحثه « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » الذى نشره فى عام 1956 وفيه تلخيص امين وواف لآراء هؤلاء المستشرقين، مرجليوث، وليال ، وجور جيو ليفى (39) ، وقال: إنه أهمل مناقشة جب وبروكلمان وغيرهما فى آرائهم لشهرتها ودورانها (40) .

وقبل ربع قرن تقريبا تعرض الدكتور شوقى ضيف لآراء نولدكه ومرجليوث، وبلاشير وذلك فى

كتابه « تاريخ الأدب العربى والعصر الجاهلى (41) ومثله الدكتور أحمد الحوفى فى كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلى » (42) الذى صدر فى عام 1962 . هذه أمثله أسوقها للتدليل على دراسة الباحثين العرب حول ماقاله المستشرقون فى الشعر قبل الاسلام وما أكثر البحوث والكتب التى صدرت فى هذا المجال، وجميعها لم تغمط لهؤلاء المستشرقين حقا بل تناولت فى وعى وادراك تامين ما طرحوه من آرائهم، مثبتة مالهم وما عليهم فيها ، فعلام إذن هذا الضجيج الذى أثاره الدكتور بدوى بأخرة ، وهذا التجنى على غيره من العلماء والباحثين؟!. إن كان أراد أن يروج لكتابه فقد والله تنكب سواء السبيل وإن كان أراد أن يشغل الأمة من جديد بقضية انقضى أمرها منذ زمن بعيد فلعمرى انه وطه حسين ليغرفان من بئر واحدة وان تأخر متحه المريض عن متح طه حسين بخمسين سنة أو يزيد .

اننا لانقلل من قيمة هذه الأبحاث التى خلفها هؤلاء المستشرقون، والتى هيأتها أدواتهم فى البحث ولكنها مع ذلك ـ إن صرفنا النظر عن هوى بعضهم وغرضه ـ تعد أدوات ينقصها شىء مهم هو الادراك الواعى لطبيعة الحياة التى عاشها هؤلاء العرب أصحاب هذا الشعر . يقول الدكتور محمد النويهى هذا الشعر أنتجه قوم معينون، عاشوا فى حقبة معينة من التاريخ، فى بيئة جغرافية محددة الطبيعة الطبوغرافية والأحوال المناخية ، والعناصر النباتية والحيوانية فى مجتمع معين ذى أوضاع وظروف مادية وثقافية معينة، فالدراسة الفنية لهذا الشعر تكون محض تخريف وهجس اذا لم تربطه ربطا وثيقا بهذه الاحوال والأوضاع والظروف فترى فيه تأثره بها من ناحية، وتتلمس تأثيره فى مجتمعه من ناحية أخرى، ولا نريد هنا أن نحصى الدراسات المكتبية التى يحتاج اليها دارس الشعر الجاهلى لتحصيل العلم الذى يلزمه.. بل نود أن نلفت الانظار الى ان الدراسة المكتبية مهما تكن سعتها واحاطتها لاتغنى عن الخبرة الميدانية المباشرة » (43) .

فهل فعل ذلك الدكتور عبدالرحمن بدوى قبل أن يحبر مقدمته التى كتبها فى روما عام 1979 م ، بل هل فعل ذلك هؤلاء المستشرقون الذى احتفى بهم فى مقدمته ايما احتفاء ؟

والحق يقال اننا نحمد للدكتور بدوى جمعه لهذه الأبحاث وترجمتها، وهى كما قلت كانت مبثوثة فى كتب الباحثين ودراساتهم التى نشروها فى عقود الثلاثينات الى الستينات ، وجمعها فى كتاب واحد ، شىء مفيد حقا لولا هذه المقدمة التى صدرها به، والتى اشتملت على تدليس واضح، وتجن صريح على غيره من علماء الأمة، ومحاولة فى صرف للأمة الى قضية ثبت زيفها وتزيدها .

هوامش المقال

(1) ينظر مقدمة كتاب « دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى » ط . دار العلم للملايين بيروت الصفحات 5 ـ 10 .

(2) هذه العبارة وردت فى كتاب « فى الشعر الجاهلى » الذى جمع واحرق فى حينه بعد ان تسربت نسخ منه الى ايدى الناس فى ذلك الزمن ، وقد نقلناها من كتاب استاذنا الدكتور الطاهر احمد المكى « امرؤ القيس حياته وشعره » ط . دار المعارف مصر ص 11 .

(3) في الأدب الجاهلي ط . دار المعارف مصر ص 71 ومايليها .
(4) طبقات الشعراء ط . دار الكتاب العلمية بيروت ص 39 ، وينظر ص 6 من مقدمة عبدالرحمن بدوي لدراسات المستشرقين .
(5) ينظر كتابنا «في ادب ماقبل الاسلام» ط دار الاوزاعي بيروت ص 76 .
(6) طبقات الشعراء ص 40 ومقدمة بدوي ص 7 .
(7) ينظر الفصل الذي عقده في هذا الخصوص الصفحات 439 ـ 450 .
(8) طبقات الشعراء ص 28 .
(9) ينظر مجلة الفصول الاربعة طرابلس الغرب عدد يوليو 1980 وينظر كتابنا في ادب ماقبل الاسلام ص 78 ومايليها .
(10) في الادب الجاهلي ص 216 ـ 225 .
(11) ينظر الصفحات من 226 الى 273 .
(12) طبقات الشعراء ص 41 .
(13) المصدر نفسه ص 58 .
(14) نفسه ص 67 .
(15) نفسه ص 38 .
(16) نفسه ص 64 .
(17) هذه رواية ابن سلام في طبقات الشعراء ورواية شروح القصائد الطوال « تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد » .
(18) طبقات الشعراء ص 58 .
(19) نفسه ص 39 ومايليها .
(20) في الأدب الجاهلي ص 252 .
(21) المصدر نفسه ص 209 .
(22) طبقات الشعراء ص 45 .
(23) في الأدب الجاهلي الصفحات 257 ـ 265 .
(24) المصدر نفسه ص 265 .
(25) طبقات الشعراء ص 66 .
(26) في الأدب الجاهلي ص 255 .
(27) نفسه ص 275 ومايليها .
(28) طبقات الشعراء ص 34 .
(29) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ط . نهضة مصر ص 180 .
(30) طبقات الشعراء ص 41 .
(31) ينظر مقدمة بدوي ص 9 .
(32) طبقات الشعراء ص 59 .
(33) المصدر نفسه والصفحة ذاتها ومايليها .
(34) ينظر مقدمته لكتابه « امرؤ القيس ، حياته وشعره ص 11 .
(35) ينظر مقدمة بدوي ص 13 من كتابه دراسات المستشرقين .
(36) ينظر دراسات نقدية ط . المنشأة الشعبية للطباعة والتوزيع والاعلان طرابلس الغرب سنة 1979 .
(37) ينظر الصفحات 17 ـ 20 ـ وغيرها من صفحات تلت من هذا الكتاب .
(38) ينظر ص 100 من هذا الكتاب .
(39) ينظر الصفحات 352 ـ 376 من مصادر الشعر الجاهلي .
(40) المصدر نفسه ص 376 .
(41) ينظر الصفحات 166 ـ 168 .
(42) في هذا الكتاب صفحات مختلفة تصدت للرد على ما جاء عند المستشرقين من خلال رده على طه حسين ، ينظر مثلا الصفحات 68 ـ 90 ـ التي يعقدها لحديث اللغة العربية واختلاف اللهجات التي اعتمد عليها المستشرقون في شكهم في شعر اليمن .

(١) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٥ ـ ٢٧ ج ١ ص ١٢٧ .
(٢) حسين ابراهيم : تاريخ عمرو بن العاص : ص١٨٣ .

(١) ذكر الطبرى : تاريخ الامم والملوك : ج ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها : ان عام الرمادة كان سنة ثماني عشرة ، وذكر ان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كتب الى عماله على الامصار يستغيثهم لاهل المدينة ومن حولها ويستمدهم فكان ابوعبيدة بن الجراح (رضى الله عنه) اول من قدم عليه ثم تتابع الناس واستغنى اهل الحجاز واحيوا مع اول الحيا ، ثم قال . وقالوا باسنادهم (اى اسناد من نقل عنهم) وجاء كتاب عمر بن العاص جواب كتاب عمر فى الاستغاثة ، ان البحر الشامى حفر لمبعث رسول الله صلى عليه وسلم حفيرا فصب فى بحر المغرب فسده الروم القبط ، فان احببت ان يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت له نهرا وبنيت له قناطر فكتب اليه عمر ان افعل وعجل ذلك ، فقال له اهل مصر : خراجك زاج واميرك راض وان تم هذا انكسر ، فكتب الى عمر فرد عليه : اعمل فيه وعجل اخرب الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها ، فعالجه عمرو وهو بالقلزم فكان سعر المدينة كسعر مصر ولم يزد ذلك مصر إلا رخاء .

وهذا الخبر فى الواقع لايحتم ان كتاب عمر الى عمرو فى الاستغاثة صدر منه فى آن واحد مع ماكتبه الى امراء الامصار فى سنة ١٨هـ . والمرجح انه كان بعد ذلك بحكم فصل الطبرى الخبر إلى قسمين وتصدير القسم الثانى وهو الخاص بمصر بقوله : وقال باسنادهم الخ ، لانه تعقيب لايمكن ان يقصد به غير تكميل الجزء الاول بخبر مرتبط به ولامانع من ان يكون وقوعه فى وقت آخر ويؤيده قول الرواة فى القسم الاول من الخبر بعد ان ذكر قدوم ابى عبيدة على عمر وتتابع الناس .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها : ص ١٦٢ ـ ١٦٦
المقريزى : الخطط : ج ٣ ص ٢٨ ـ ٢٩
(١) سيد امير على : مختصر تاريخ العرب: ص ٦٩
(٢) هيكل : الفاروق عمر: ج (٢) ص ١٧٧
(٣) المسعودى : مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٦٤
(٤) شكرى فيصل : المجتمعات : المجتمعات الاسلامية : ص ١٢٤ ـ ١٢٦
بتلر : فتح العرب لمصر : ص ٣٩١
(١) على مبارك : الخطط التوفيقية : ج ١٨ ص ١١٨

(٢) ذكر المقريزى نقلا عن الكندى فى كتاب الجند العربى ان عمرا حفره فى سنة ٢٣ هـ وفرغ منه فى ستة اشهر وجرت فيه السفن ووصلت الى الحجاز فى الشهر السابع ، المقريزى : الخطط : ج ٣ ص ٣٠ ، ديرى بتلر ـ ان بدء حفر الخليج كان فى اوائل سنة ٦٤٢م وتم فى شتاء سنة ٦٤٣ ـ ٦٤٤م وبذلك خالف بتلر الكندى الذى جعل حفره فى سنة ٢٣ هـ معللا ان هذا التاريخ غير محتمل لان عمرا كان مشغولا فى فتح بنطابوليس ولكن هذا لايمنع ان يكون عمرو قد عهد الى ذوى المعرفة من اصحابه بعد صدور امر الخليفة عمر (رضى الله عنه) اليه ان يقوموا بهذا العمل ويتفرغ هو وجنده لاعماله لان اهل مصر كانوا يساعدون الجيش العربى فى اصلاح الطرق واقامة الجسور .

(١) عبد الفتاح محمد وهيبة : نفس المصدر السابق : ص ٣٢٥
(٢) المقريزى : نفس المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٠
(٣) عبد الفتاح محمد وهيبة : نفس المصدر السابق : ص ٣٢٥
(٤) المقريزى : نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠
(١) على مبارك : نفس المصدر السابق : ج ١٨ ص ١٢١
(٢) المسعودى : مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٦٤
(٣) هيكل : المصدر السابق : ج ٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٨

«المصادر والمراجع»

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك : خمسة اجزاء الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، مطابع دار المعارف بمصر .

(٢) المقريزى : الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ اربعة اجزاء ، طبعة ١٩٥٩م ، مطبعة الساحل ، لبنان .

(٣) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب: ستة اجزاء طبعة سنة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م ، مطبعة دار الكتب المصرية .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر : ثلاثة اجزاء ، طبعة ١٩٥٨م تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد .

(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ١٢ جزءا طبعة سنة ١٣٠٦ هـ ، المطبعة الاميرية .

(٦) ابن عبدالحكم: فتوح مصر واخبارها : طبعة سنة ١٩٢٠م (ليدن)

(٧) بتلر (الفرد : ج) فتح العرب لمصر : تعريب وتعليق محمد فريد ابو حديد طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥١هـ .

(٨) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية فى القرن الاول : رسالة الدكتوراه القاهرة : طبعة سنة ١٩٥٢م .

(٩) عبدالفتاح محمد وهيبة: الجغرافية التاريخية بين النظرية والتطبيق طبعة سنة ١٩٨٠م دار النهضة العربية بيروت.

(١٠) حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص : القاهرة : طبعة سنة ١٩٢٢م

(١١) سيد امير على : مختصر تاريخ العرب: نقله الى العربية عفيف البعلبكى طبعة سنة ١٩٦١م ، دار العلم للملايين ، بيروت

(١٢) محمد حسين هيكل : الفاروق عمر ، طبعة سنة ١٣٦٤هـ

(١٣) محمد ابراهيم حسن :دراسات فى جغرافية ليبيا والوطن العربى ، الطبعة الاخير ١٩٧٨م

(١٤) موريس لومبارد : الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامى خلال القرون الاربعة الاولى : ترجمة د . عبدالرحمن حميدة : دار الفكر بدمشق ١٩٧٩م .